ما وراء الميتافيزيقا أم بجانبها؟
"قراءة(إيمانية) للمستقبل الإنساني"

على حسين الجابرى(*)

المقدمـة

انتهت المتغيرات الكبرى فى العقدين الآخرين من القرن العشرين ومطلع الألف الثالث للميلاد، إلى حاجة مُلحة لإعادة النظر، بجميع الأسئلة الفلسفية "الأخلاقية والإجتماغية والعقيدية والسياسية" لكى يتمكن الإنسان من فهم ما يجرى حوله من أحداث وحوادث ومتغيرات، محسوبة عليه، وتفسير ظواهر مختلفة، جاءت على النقيض مما طلبه العقلاء "الحكماء" والمصلحون قبل الأنبياء والرسل- وبعدهم! أو قل طوال العصور التوحيدية "الإيمانية"..إن الخلل الذى أحرج الأجوبة الفلسفية القائمة والمفاهيم المتداولة عن"الحق، والخير، والسعادة، والفضيلة، والجمال، والمحبة، والإنسانية، المشتركة" فى حقب التطور "الدينى- الفلسفى- العلمى" التى قطعتها البشرية عبر أربعة آلاف سنة بدءًا من "ثورة التوحيد" الإبراهيمى. قبل ألفى عام من ميلاد المسيح (ع) الذى حمل بتضحيته الناسوتية العبء عن الإنسانية، ويخلصها من الخطيئة الأولى! وذيولها! وآثارها النفسية. كانت جميع الأجوبة والقناعات والمفاهيم "العقلية" تحاول أن تطمئن على علاقة الإنسان، بذاته، وببنى جنسه، وبالطبيعة، وبالأسباب العليا، فى كل منعطف تاريخى، أو عند أية أزمة إنسانية أو حرب أو صدام أو خلاف. وتواصلت مهمة الإنسان، على هذه الأرض، فى جميع الظروف حتى بعد أن أضحت -بفضل الكشوف العلمية الجبارة- "حارة صغير"، أو قرية ميسورة التواصل والاتصال والتعامل والتبادل! ولكن من "غير تفاهم أو حوار"! حول شؤون سكان هذه القرية وهمومهم! وحاضرهم ومستقبلهم. نعم فالغريب فى الأمر أن سكان هذه القرية الصغيرة/أو قل الحارة أو المدينة سمها ما شئت، هم اليوم أكثر فُرقة، وغربة

(*). كلية الآداب- الجامعة المستنصرية. بغداد.

وخلاف وضياع فى أزقة هذه القرية، فأصبحوا "شماليين وجنوبيين" أو قل "حضاريين وإرهابيين". مع أن المنطلق العقلانى-النقدى يقول، سجل نقدك على الخلل وأسبابه، واقترح حلك العقلانى لمشكلاته! وأعمل على تطبيقه والوصول به إلى "العقلنة" أما العلم فارتقى به إلى "المنهجية العلمية" فالعلمنة! ولكن متى يتحقق ذلك؟ حين يكون سكان "الحارة" أقدر على التعارف والتعاون والتفاهم "الحوار" والتكاتف! وتبادل الخبرة والمنفعة والمصلحة والفائدة فكيف يكون "القريب=غريبا" و"الجار=جائرا" و"اللص=شرطيا" و"القاتل=مقتولا" و"الظالم=مظلوما" وكيف وكيف وكيف؟ لولا خلل فى المعايير؟ هذه هى المفارقات التى توجب علينا "الحوار والانفتاح على الآخرين" وإعادة النظر فى موضوع "العلاقة" بين الناس، على أساس "المواطنة= لا العمالة" و"العقيدة الصحيحة= لا التطرف" و"الأخوة الإنسانية= لاسطوة الاستبداد والتسلط واللهيمنة ومصادرة الرأى، وإعلان الوصاية". التفاهم يجرى فى إطار من الحوار بين "الثقافات والحضارات، والأمم، والجماعات، والديان، والجامعات" على ثلاثة مستويات "إيمانى، قلبى، عقيدي" و"شكلى، عقلى، فلسفى" و "علمى، تجريبى، معلوماتى". يشارك فيه من اهتدى بنور "الله، الرب، الحى" مع غيره من المؤمنين، وحوار حيوى مبرأ من عناصر التفوق والاستعلاء والوصاية، ينفتح على جميع الناس، والأمم والحكومات، والشعوب، لكى يعيش الجميع بسلام وامان وشراكة على هذه الأرض، التى جعلها الله لنا مسرحًا لإظهار قدرتنا الإبداعية وتحملنا للمسؤولية الإجتماعية والتاريخية فى إنمائها وحمايتها من كل تخريب، وجعلها أكثر أمنا وأمانا، وملاذا للإنسان! الذى اطمئن على كرامته، وطمئن حاجاته، واستعد للتعاون مع بنى جنسه من الأقربين والأبعدين، لكى يؤكد "سيادته" على هذه الأرض، وعبوديته "للخالق جلّ وعلىّ".

فالذين يخشون الله "حاكمين ومحكومين" هم الأقدر على حماية الأرواح والأعراض والأموال "الحرث والنسل"! وهو ما يصبوا إليه العقلاء حاضرًا ومستقبلا. فهل أن الذين ما وراء الميتافيزيقا، هو بجانبها؟ أم ماذا؟ سؤال سنحاول الإجابة عليه فى الصفحات اللاحقة -ليأتى قريبا من "ثقافة الإيمان، وحوار الثقافات".

أولًا: مثلث الحقائق: قراءة عقلانية نقدية معاصرة.

لكى نطمئن على النسق المنطقى/المنهجى الذى ينظم هذه الدراسة ننطلق من قواعد فلسفية اعتمدها كاتب هذه السطور طوال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين، وما تلاها من سنوات القرن الواحد والعشرين وأعنى بها:

١-أن الإنسان، مثلث التكوين "الحاجات، والدوافع، والهواجس" ولا يعيش ببعد واحد. "شىء" أو ببعدين "نفس وجسد" بل هو:

أ- الإنسان "جسدا" تحركه ضرورات "الحاجة" والغريزة للحياة والتكاثر والعمل.

ب- الإنسان "عقلا" تدفعه "الدهشة" وتحثه الإرادة لكشف ما يجرى حوله، واكتشافه! على صعيد التأمل والتفكير والتعقل ليعرف موقعه!

ت- والإنسان "قلبا، فؤادا، جنانا، ضميرا، وجدانا" تأخذه "الرهبة" إلى حيث يجب أن "يطمئن" ويؤمن ويأمن! لكى يستوعب عوامل الخوف من الغامض، والمجهول والغائب، والخفى، والآتى، و"المصير"! علع، يركن إلى ميناء "الطمأنينة، والإيمان" وحسن الاعتقاد! حين يحقق التناغم مع بعدين "الذاتى" و"الكونى":

٢-وعلى "ثلاثية" الأسس، قامت الحضارة، وتكللت جهود الإنسان بالتقدم طوال آلاف السنين، وأعنى بها "العلوم= المادية/المدنية" و "الفلسفات" التى شكلت لنا "القاعدة الفلسفية" وعلى العقائد والأديان استقامت المسألة "الإيمانية" ولكل واحد من هذه الميادين مساحة ومظاهر (١) لا مجال للإفاضة بها هنا!

أ-فأما العلوم، فهى عامة مشتركة ضرورية لجميع بنى البشر، لا هوية قومية أو وطنية لها إلا بالعنوان، بفضل شمولية الهدف والأفق والغاية، هى للناس كافة مدينة مشتركة.

ب-وأما الفلسفات فهى وأن انطوت على أسئلة لكنها تتسم بخصوصية العقل الذى ينتمى إلى "خارطته الرمزية اللغوية ومعينها المعرفى" ومرحلتها التاريخية أى "إنسان/لسان، وزمان، ومكان، وعنوان".

---

(1). تحدثنا عن ذلك فى كتابنا "الإنسان والواجب، إشكالية فلسفية"، سلسلة الموسوعة الصغيرة، (٤١١)، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٩٨، ص١٧- ٢١٢.

جـ-وبقيت الأديان والعقائد:فهى تنطوى على بعدين "عام/ كونى" و"خاص/ ذاتى/ عاطفى/ انفعالى/ تسليمى" يشمل الثانى الناس الذين ينتظمون تحت عنوان من عناوين العقائد والأديان"! لكنه فى الوقت ذاته ينطوى على "ذاتية مطلقة" تتحقق حين يتواصل "الفرد- الذات" مع بعده "الكونى- الوجودى" (١). وعلى وفق هذا الفهم لثقافة الإيمان جاءت:

أولًا:فكرة الاستخلاف على هذه الأرض "القرية، الكبيرة أم الصغيرة" لا يهم وإعلان سيادة الإنسان عليها، فى الوقت نفسه إعلان عقلانيته/ حريته ومسؤوليته عنها.

ثانيًا:اكتشاف "وحدة الوجود" التى تظهر قوة الإنسان وثباته وصبره على الشدائد وثقته بنفسه، وبمحيطه وبخالق هذا الوجود، بفضل التناغم مع هذا الوجود اللا نهائى.

ثالثًا:الاعتراف "بفردية الإنسان" من حيث المسؤولية الأخلاقية والجزائية على قاعدة ﴿ولا تزرُ وازرة وزرَ أخرى﴾ لكن ثمة "شراكة" فى الاستثمار، وحسن الإدارة، وحسن الاستغلال، وحسن التعامل على هذه الأرض نَجَم عنه نوع من المعرفة المتدرجة -وطوال أربعة آلاف سنة توحيدية حنيفية- تقول بتكامل، علوم الطبيعة، والخيال، وما بعد الطبيعة ويتوحد فيه "الناسوت واللاهوت" (٢). ومتى اختلت هذه المعادلة جرى الاختراق المعرفى - العقلانى- واضطراب القلب، وشاب اللسان نوع من "اللغة" الخبرية التى تحتمل "الصدق" أو "الكذب"! والسؤال الكبير هو من أين يأتى الاختراق؟ اختراق "وعى الإنسان وثقافته" هل من "أجوبة الحاجة؟" أم "من أجوبة الدهشة" أم "من أجوبة الرهبة؟" قليلة هى الشواهد التى تقف عند "الجسد والعقل" وكثيرة تلك التى مردها "القلب= الخوف" بحثًا عن الأمان والإيمان! والأمن والطمأنينة! وبين أجوبة "العلم" و"الفلسفة" يحار الإنسان على "حاله" حين لا يجد "الملاذ الآمن" ومثل هذا الملاذ لا يأتى إلا حين "نعرف الله ونخشاه" نعرفه فى قولنا، ونخشاه فى سلوكنا ولاسيما حين نكون حكامًا ذوى ضمائر! يقول ابن الطقطقى "متى

---

(1).وهو واحد من موضوعات فلسفة التاريخ فى فكر الإمام موسى الصدر، عرضنا له مفصلا فى دراستنا المسماة "الإمام موسى الصدر وفلسفة التاريخ"، بيروت، ٢٠٠٤، ص١- ٣٨.

(2).على حسين الجابرى:الحوار الفلسفى بين حضارات الشرق القديمة وحضارة اليونان، دار آفاق عربية، بغداد، ١٩٨٥، ص٢٨- ٢٤٣.

خشى الحاكم "الأمير" الله، آمنه العباد على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم"[1]، والعكس صحيح! فيحصل الخراب فى البلاد! أن الظن يقود إلى الشك، والعكس بالعكس مثلما يقود الشك المطلق إلى الخوف، والرهبة، والقلق على "الذات" الفردية، والذات الأسرية، والذات الإجتماعية، مثل هذا الخوف يمتد إلى "المستقبل"[2] ولا سبيل إلى علاجه إلا بالعودة إلى "القلب= الإيمان" وتحقيق "طمأنينته" فى ضوء النص المقدس المتفجر من السؤال الإبراهيمى الحنيف ﴿أولم تؤمن قال:بلى ولكن ليطمئن قلبى﴾[3] ولا سبيل إلى ذلك إلا "بالإيمان" وعودة السلام الداخلى إلى ذلك "القلب" المتوجس! القلق! الخائف! والتسليم بالحقيقة المطلقة.

٣-فأين نحن من هذه الطمأنينة؟ سؤال يعرف "العلماء" إجابته بالتجربة! ويعرف "العقلاء" إجابته بالتأمل والاستنتاج والاستدلال! أما "العارفون" بواطن الأمور القلبية والحقائق الخفية! فهم أكثر من غيرهم على معرفة حقيقته ومدياته وحجمه؟ ومن هذا السؤال كانت الإجابة على مسألة "الخوف والتخويف" وتأجيج الصراع -بدلا من التعاون- بين بنى البشر، وذلك هو صلب ما يُعرف "بصدام الحضارات"، أو هو العامل الغائب[4]. عن حياتنا المعاصرة! فى العراق المعاصر. فأين نحن مَن ذلك؟! نقول ابتدائنا نحن مع "الحوار" بالأمس واليوم وغدًا، مارسنا الحوار حين أنتجنا حضارتنا طوال أربعة آلاف سنة وتوسطنا للحوار حين أوصلنا ما للشرق إلى الغرب، وما للغرب إلى الشرق! واستوعبنا الحوار حين، كنا نستهلك ما يسوق إلينا من الغرب إلى الشرق! هذه هى فضيلة "الموقع الوسط/ والأمة الجسر" فى "المنظور الجغرافى" والمنظور التاريخى، والمنظور الحضارى، والمنظور العقيدى.

---

(1). ابن المطقطى:الفخرى فى الآداب السلطانية، المطبعة الرحمانية، القاهرة، ١٩٢٧، ص٨- ١٦.

(2). عالجنا هذا الموضوع فى دراستنا الموسومة "الخطاب العربى الثقافى والإعلامى وجدلية الخوف"، المائدة المستديرة، (١٤)، طرابلس، تموز ٢٠٠٤، ص١٧- ٥١، "المحور الإجتماعى".

(3). سورة البقرة(٢: ٢٦٠).

(4).نوهنا بذلك مفصلا فى دراستنا الموسومة "الخطاب العربى فى ظل العولمة والعامل الغائب" أو "مقاومة بغداد الما قبل والما بعد"، المؤتمر الخامس للجمعية الفلسفية الأردنية، عمان، فى مارس ٢٠٠٤، ص١- ٢٩.

وللسبب عينه كان انحيازنا إلى "منطق الحق والعدل والخير والجمال" بالضد من منطق القوة، ومع ذلك نلاحظ الميل الكبير في ميزان العلاقات والحقوق لصالح دعاة القوة ليتفوقوا به على منطق الحق وأهله (١). مستفيدين من اختلال المقاييس والمعايير والمفاهيم! والشواهد على ذلك ماثلة لكل ذي بصيرة. فأين نحن "مثقفين، ومواطنين، ومسؤولين" من هذا الواقع، الذي عاش فيه الإنسان ببعد واحد (٢) بعد أن تحول إلى "سلعة/ شيء" يباع ويشترى في سوق النخاسة

تلك مسألة جوهرية لمن يدعول "الحوار" في عصر "الصدام والصراع" لكون دعاة "الصراع" يملكون جميع أسباب القوة، ومرجعياتها الأممية والعالم منشطر إلى "شمال قوى، وجنوب مُغيَّب" على الرغم من عناصر القوة التي يمتلكها الجنوب!

(٣)

أ-الأمر يتطلب، حوارا بين المظلومين (جنوب/ جنوب) فإجتماع الضعفاء قوة.

ب-ثم حوار (جنوب/ شمال) محايد يجمع المصلحين والحكماء والمناضلين ضد جميع أنواع الظلم، لصالح الإنسان، الذي جاء الأنبياء والرسل لتحريره من أسباب القهر والاستلاب! وتحقيق الكرامة الإنسانية لجميع الناس.

ج-ثم حوار (جنوب/ شمال) "عقلاني" لا يشترط فيه وحدة المنهج "إيمانيًا" أو غيره! مادام الحوار بين العقلاء يتعلق بالإنسان، ومصيره الإنساني في ظل "الظروف" التي تحاصر إنسانيته، وتحوله إلى شيء! مجرد شيء فاقد للإرادة وفاقد للقرار المستقل.

د-حوار مع جهات الدنيا الأربع (شمال جنوب/ شوق وغرب) يضم جميع "المؤمنين" الذين يرون في الإنسان خليفة الله، خلقه سبحانه على صورته، والفقراء عيال الرب، ممن يشعرون بهول الصدمة التي تتعرض لها القيم الإنسانية النبيلة التي ضحت البشرية من

---

(1).مطاع صفدي:نقد الشر المحض، نظرية الاستبداد في عشية الألفية الثالثة، مركز الإنماء القومي، بيروت، بيروت، ٢٠٠١، ص٩- ٢٨٨.

(2).هربرت ماركوز:الإنسان ذو البعد الواحد، ت:جورج طرابيشي، ط٣، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٨، ص١٧- ٢٤، ٢٥- ٢٥٦.

(3).يوسف نور عوض:نقد العقل المتخلف"فقراء العصر التقني"، ط١، بيروت، ١٩٨٥، ص٣٨- ٥٠، ٦٧- ٩٨، ١١٢- ١٤٩.

أجلها طوال أربعة آلاف سنة "من التوحيد الإبراهيمى الحنيف.. وصلا إلى حنيفية الإسلام" مرورًا باليهودية/ الموسوية والمسيحية/العيسوية" وما جاورها من عقائد وديانات، صابئية، بوذية، كونفوشية.. إلخ. كل ذلك، لمواجهة المشروع التصادمى الذى يقوده "بعض قوى الشمال/ المتصهين" (١)، التلمودى ضد جميع العالم. نعم بعض محدود الزمان والمكان والإنسان، ضد الإنسان، والمكان، والزمان، فى عموم كرتنا الأرضية، أنه خطر اليمين المتطرف الجديد.

أن دعوة "الصدام" (٢) المعززة "بالقوة/ العسكرياتية" والتى تمثل رغبة "الصقور" والمهيمنين على أسباب القوة "مال/ سلطة/ تقنية وعلوم/ جيوش/ أعلام/ قرار أممى!" لا سبيل إلى إيقافها إلا بدعوة إنسانية شاملة تقابلها، يشترك فيها جميع العقلاء والمؤمنين والمحايدين أنها مشروع للتحرير والسلام والخلاص يمثل حقوق "الكثرة، العبيد، المهمشة" لكى يوقفوا زحف المشروع "الجهنمى" للقلة -المهيمنة من "السادة" على أمل أن تغلب الكثرة، صاحبة الحق! فى الصراع دعاة "القوة" والصقور! هذا من حيث الإصرار على منطق الصراع خارج "قانون القصاص الإلهى" أما الحوار الذى نريده فليس هو "حوار ذئب وحمل"بل حوار المظلومين، والساعين إلى حياة فاضلة تُحترم فيها كرامة الإنسان! وتُرضى العدالة الآلهية! ويتحرر فيها الإنسان من حيوانيته. نعم لا سبيل لحياة كريمة من غير تعاون ومحبة وحوار واحترام متبادل هذا هو "نداء الإيمان الرحمانى" وتلك هى أجوبة "العقول" الحكيمة على أسئلة الإنسان "العاقل الحر المسؤول"، من أبناء "العالم العريق" ولقد أكدت شواهد التاريخ أن الحوار "العقلانى" هو سبيل مأمون لعلاقات نظيفة! أما "الحوار الإيمانى" العقلانى هو الغاية المنشودة لعالم آمن يسوده السلام وتبادل المنافع والاشتراك فى الهموم والمكاسب. هنا فى هذه المسألة تتأكد لنا أهمية العلاقة المركبة بين "الإنسان ويُعده الإنسانى" على الأرض التى جاء لاستخلافها، و"الإنسان- الذات فى بعده الكونى=الإيمانى"

---

(1). معتز محمد هاشم الجعبرى:نصارى الغرب المتصهين، يرقصون على طبول هرمجيدون، عالم الثقافة، عمان، ٢٠٠٣، ص٧- ٢٩.

(2). صموئيل هنتجتون:الغرب وبقية العالم بين صدام الحضارات وحوارها، مركز الدراسات الاستراتيجية، ط١، بيروت، ٢٠٠٠، ص١١- ٤٠، ٧٣- ٨٨، ١٥٧- ١٧٥.

الذى يرتقى به إلى "وحدة وجود كونية" لا أقوى منها فى العالم "الصراع المُصنَّع" فى أقبية الأشرار والماسكين بإزار الدمار! إنه "الإنسان الكوسمولوجى" أى الكونى، الذى يمتلك قوة الأرض والسماء! وما ورائها وما يقف إلى جانبها ومن غير ذلك "الوعى العقلانى، الإيمانى" لمفهوم العلاقة يبقى الإنسان يعيش وطأة "القوة والقهر والاستبداد" فى مستنقع التخلق والسقوط والفقر والضياع والتراجع والظلم الذى مد جناحيه على عالمنا المعاصر حتى نال الشر أربعة أخماس البشرية وزيادة.

ثانيًا:ذاكرة الثقافة الإيمانية ومكوناتها التاريخية.

أن الذاكرة الإنسانية مؤشر بقاء الإنسان، طوال آلاف السنين أسير ظواهر حسية مادية، يخشاها، ويحرص على إصلاح العلاقة معها، ولاسيما تلك التى يظن أنها سبب "سعادته وشقائه" أو قل "حياته وموته"، فيمنحها القدسية ويضفى عليها نوع من التأليه.. إلى حين تحرره من هذه "القيود- المادية/ الطبيعية" قبل أربعة آلاف سنة على يد إبراهيم الخليل (ع) حين تخطى الحجب المادية إلى ما ورائها (١). فالأسباب هناك، والأرضين والحيوان والبشر وجميع المخلوقات، وما على الإنسان إلا أن يسلب عن "المخلوقات المقدسة" كل تقديس ويمنحه للسبب الأول، الخالق الفاعل، الحافظ، المبدع الممسك بما أبدع، الواحد الأحد الصمد!

هكذا إذا جاء اللقاء مع "الميتافيزيقا" فى سيرورة المعرفة الإنسانية بعده، ميدان بحث لما فوق العقل حين استعصى على العقل الإنسانى، اكتشاف الحلول لمشكلاته! أو إيجاد تفسير لما يجرى حوله! وبهذه الكيفية، دخلت الإنسانية، وارتقت إلى "عصر الميتافيزيقا" وعلى ذلك دأبت ثقافات الناس اللاحقة ببعديها "العقيدى/ والأخلاقى" لتكتمل معها المعارف "العقلية/ الفلسفية" والعلوم "التجريبية/ التطبيقية". بدأ هذا مع معارف الإنسان فى الشرق القديم والوسيط. نعم، ففى ذلك الشرق "قياسا إلى الغرب" اختلف الأمر عن "أوربا/الغرب/اليونان" حيث المنظور الروحى الشمولى الكونى وهو يوسع رؤياه الدائرية للكون الدائرى! المتسع دوما "بعد الدائرة أكمل الأشكال الهندسية" فى وقت سابق على الإغريق بألفى سنة على الأقل، كان الخليل(ع) فيها ينتزع الحق من الخصوم ولكن حين

---

(1). على حسين الجابرى:الحوار الفلسفى، ص٧٩- ٩٢.

وصلت "النوبة" إلى أرسطو "المقدونى" وهو يلقى دروسه ومحاضراته على "تلامذته فى اللقيون فى أثينا" عن الكيمياء والفيزياء والأحياء، وغيرها من "علوم الطبيعة"[1]. حار التلامذة فى تسمية محاضراته اللاحقة عن "السماء والعالم" فسميت "ما بعد الطبيعة" لتصبح عند المسلمين "الإلهيات" مع ما أضيف عليه من بحث جديد، فى ضوء الخطاب المقدس والحقائق الماورائية التى جاء بها عن الوجود والحياة الثانية والروح والثواب والعقاب والقصاص..إلخ حتى قيل فيه وعنه "فى العقائد الموحدة كافة" آراء تتحدث عن الفروق بين علم "اللاهوت" وعلم "الناسوت" وما يتعلق بالأسباب الكامنة وراء الطبيعة، لغايات تربوية وأخلاقية، القصد منها أن يكون الإنسان عنصرًا "إيجابيا/ فاعلًا" وهو يحيا بين ناس وعلى الأرض من غير أن يقطع صلته بتلك الأسباب الماورائية، على الصعيد العاطفى والإيمانى "القلبى" ليمارس بحق دور "خلافة" الله فى أرضه، لا على قاعدة من العزلة والقطيعة بالمفهوم "الإيمانى الصوفى" -الفردانى، الذاتوى المطلق- بل على أساس من القاعدة الإيمانية/العملية "الذهبية" القائلة "أعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا.. وأعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا" وبذلك وجد "الفناء والأمل" على أرضية "إيمانية" مشتركة، هى بمثابة العزاء للإنسان بمأساته الإنسانية المتعلقة بالمصير مادامت الأعمال لا تنقطع عن صاحبها بالموت ومادامت الحياة الثاني هى عنوان "الحساب والجزاء والثواب" بها تكتمل دورة الأفعال، وهناك تقطف ثمارها! ذلك هو البلسم النفسى والتربوى لمثل هذا النوع من المنظورات/الثقافات، الإيمانية، المتوازنة، كما شهد بهذا النص المقدس وكما نوهنا فى الصفحات الفائتة، من أن بنى الحضارة قد نجمت عن "حاجة" و"دهشة" و"رهبة"، استقامت هذه البنى من جديد، علوما حيوية مزدهرة، وفلسفات شمولية عقلانية، وأديان "عقيدية" كانت "حصة" الإيمان "الإنسان القلب" فيها يشكل "الثلث" من صرح المعرفة الإنسانية يكمّل "ثلث العقول" بالفلسفات، وثلث الأبدان "بالعلوم" والمنجزات المادية.

---

(1). أرسطو:كتاب الطبيعة، ت:اسحق بن حنين، وشروح:ابن السمح، وبن عدى ومتى بن يونس وأبى الفرج بن الطيب، حققه وقدم وله عبد الرحمن بدوى "جزأين"، الهيئة المصرية الكتاب، القاهرة، ١٩٨٤، ص١- ٤٧١، "المقالات من الأولى إلى الرابعة"، جـ١، جـ٢، ص٤٧٢- ٧٩١ "المقالات من الخامسة إلى السابعة"، راجع ص٦ حصرًا.

وبفضل توازن "الحاجات، والدوافع، والنوازع" تقدمت البشرية إلى الأمام، على صُعد الحياة كافة، يشهد على ذلك التوازن، ملايين المخطوطات والشواهد الحية، والثقافة "العقلانية" التى انتجها العقل "المتوازن"!. واللافت للنظر، فى مثل مسيرة الحضارة الإنسانية هذه، أن "العبق الحضارى" و"الشفافية الأخلاقية" و-المعين الإيمانى كان بمثابة الرابط الذى يشد المنجزات المادية مع بعضها -لتشكل الصرح العلمى الشامخ فى الحضارة الإنسانية -العربية الإسلامية- لعموم أبناء الشرق الروحى "الموحد"! كما يشد قرارات العقل وتطلعاته نحو الأفق الأعلى! بعد أن عرف ذلك العقل "حدوده" وبأنه لا يشاكس إلا الإشكاليات التى من اختصاصه! من غير أن يشتط به القرار ليلج مناطق أخرى "ميتافيزيقية" هى ليست من اختصاصه، بل من اختصاص "الوحى=النقل" مثلما ترك "للتجربة" سبيلها فى الكشف العلمى المادى. فكأن العلاقة الثلاثية بين حاجات الإنسان ودوافعه ونوازعه، كانت نقطة الارتكاز فى كل مشروع ثقافى/ حضارى، يمثل فيها "الإيمان القلبى" -العين السحرية- الباطنية التى تراقب سلوك ذلك الإنسان مهما كان رجلا أم امرأة حاكما أم محكوما، رب أسرة أم رب عمل تنذره عند كل خطأ أو شطط من "الجسد" أو "العقل" أو "النفس الأمارة بالسوء" وصولا به إلى العدالة والحق، متجنبا الظلم والتطرف، ولا يعمل للناس ما لا يجب أن يفعلونه له، ويؤمن وبوجود مبدأ (القصاص) فى الدارين والعالمين! هذا الإيقاع "للتناغم" بين نشاطات الجسد والعقل والقلب، تواصل مع الإنسان "المؤمن" و"العاقل" بفضل ثقافته الشمولية المركبة التى تدفع به نحو غاياته المشروعة والسعيدة والفاضلة[1].

لكن مثل هذه "الأمنيات" قد اختل ميزانها وغابت ملامحها وارتبكت مقوماتها بسبب اختلال المعايير والموازين والأحكام والنوايا، على قاعدة ﴿أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[2]. فكانت فى ديارنا المشرقية بعد سقوط بغداد فى ١٢٥٨م أو سقوط غرناطة فى ١٤٩٢م، وتعاقب الغرباء على ديارنا وثرواتنا وحقوقنا، وإرادتنا السياسية "فكان ما كان مما أنت تعرفه -وكن قنوعا- ولا تطمع بقيراط من الأسل" بخلاف ما أصبح عليه الآخر

---

(1). على حسين الجابرى:المجمتع الفاضل فى الفلسفة الإسلامية، مجلة دراسات عربية وإسلامية، "ع٢"، السنة الثانية، بغداد، ١٩٨٢، ص٩٦- ١٤٢.

(2). سورة الرعد (١٣: ١١).

من فرص إيجابية، عززت "فرديته" و"أطلقت" أيدى الحاكم والمؤسسات، من "قيود" الأخلاق والدين، بسبب القاعدة الميكيافيلية القائلة "الغاية تبرر الوسيلة"(١) لتفتح بذلك آفاقا للتطور والتقدم على الصُعد الفلسفية والعلمية! مع تراجع الأثر الإيمانى فى ثقافة الغربيين لأسباب ذاتية وموضوعية، أساسها "حرية المعتقد" وضعف تأثير الكنيسة على قناعات الناس! بعد أن ارتبطت بها "أسباب قهرهم" وبؤسهم! فلم يعد الحاكم "يخشى الله" فى قراراته ومشاريعه، إنما يخشى الصحافة. هكذا نمت مكونات الدولة وسلطاتها، وصلاحياتها، وحدود تأثيرها الإقليمى والعالمى، بسبب الثورات "الصناعية- والإجتماعية- والعلمية" إلى جانب الهزات الكبرى التى أحدثتها -لاحقا- الثورة الأمريكية، والثورة الفرنسية، والثورة البوليشفية!.. "أما نحن فننفعل بأصداء هذه الهزات والثورات". لقد عززت الكشوف العلمية والنمو الاقتصادى الهائل النزعات الفردية وأطلقت مفهوم الحرية، و"تأليه البشر" ولم تعد "الميتافيزيقا/ والإيمان/ والله/ والحياة الثانية" التى سبق وتحدث عنها ديكارت، وكانط، وهيجل -وغيرهم، ولم تعد موضوعا مغريا للبحث الفلسفى اللاحق بتأثير الثقافة المادية التى تعاملت مع الإنسان "جسدا" فحسب "معدة وما دونها"بعد أن تصاعدت وتائر النزعة المادية وأزمة الثقة بالكنيسة والوثوق التطورى بالعلوم ومنجزاتها إلى الدراسات التطورية والوضعية، ساعدت جميعها على تراجع البحث الميتافيزيقى، وأضعفت ثقافة الإيمان، والوصول إلى مديات الدرس الإجتماعى "بالوضعية الإجتماعية" على يد أوغست كومت، والبحث الفلسفى "بالوضعية المنطقية" لجماعة فيينا التى رفضت جميع قضايا الميتافيزيقا بعدّها قضايا فارغة لا تستحق الدخول إلى الحقل المعرفى اليقينى. مما دفع بواحد من أبرز المفكرين العرب المعاصرين، واعنى به "زكى نجيب محمود" ليتحدث عن "خرافة الميتافيزيقا"(٢) والذى عدله لاحقا تحت تأثير رد الفعل إلى "موقف من

---

(1). مكيافيللى:الأمير، تعليق بنتيو موسولينى، تقديم كريستيان غاوس، تعريب خيري حماد، تعليق وتعقيب فاروق سعد، دار الآفاق الجديدة، ط٩، بيروت، ١٩٧٩، ص١٥٠- ١٥١، ٢٤٦.

(2). على حسين الجابرى:زكى نجيب محمود بين العقلانية النقدية والنزعة الحيادية، ضمن ملف المجلة الفلسفية العربية، عدد ١-٢، مجلد ٥، عمان ١٩٩٧، ص٧٤- ٨٧، كذلك موضوعات، فاتنة حمدى وخديجة العزيزى وعبد الجليل والى وعبد الله إبراهيم وشلتا عبود وعبد الإله نبهان.

الميتافيزيقا" هكذا انتهى الحال "فلسفيا بعد تلك الحقب التاريخية التى كان الإنسان خلالها يستظل بظلال "الرحمن" فى مواجهة الشدائد فلم يعد له اليوم ظل يقيه قرّ الشتاء وحرّ الصيف! بعد أن صدق حكاية "العلوم الإنقاذية" التى تتصل بالجوانب المادية! وبخلاف المنهجية الأرسطية التى ذهبت فى مباحث الفلسفة من "الطبيعة" إلى "ما ورائها". سنعود نحن اليوم، إلى الوراء ونقلب المنهج الأرسطى، الذى به ندرس "الميتافيزيقا" وما قبلها، وما بعدها، أو ما بجانبها! فى ضوء الثورات العلمية/المعرفية الكبرى فى زماننا هذا والذى يقول "المعرفة قوة". وصولا إلى ما يعرف بالقراءة "الكيوسية" فلسفيا، وعلم الخيال إجرائيا والذى يتحقق بفضله الكثير مما كان يعد -حتى سنوات قليلة- من نوع "قضايا الميتافيزيقا"[1] فكيف سيكون عليه واقع الحال "الثقافة والإيمان" و"حوار الثقافات" الإنسانية! التى تسمو على المنظورات الاستعلائية والعنصرية والمتطرفة من جميع الأسماء والعناوين؟

ثالثا:الثقافة اليوم وحدود "الإيمان" فيها.

اليوم وبعد أن تاهت منظومة حوار -الإنسان- مع "ذاته" ومع غيره من بنى البشر ومع محيطه الطبيعى، والكونى "الميتافيزيقى" وغلب الشك والظن على قناعاته "المعرفية" وانعدمت الثقة بالآخر "المهيمن" هو فى حقيقة الأمر، اختلال "القلب" قبل العقل والجسد، وتقاطع الوعى/الواجب، ومع الضرورى، والسيكولوجى بعد أن اخطأ الإنسان فى تعامله مع "الموضوعات" من غير تمييز بين "ماديتها، وعقليتها، وقلبيها" فلا غرابة إذا تقاطعت الحدود والمفاهيم والتصورات حتى عدّ البعض أن أصل "الإشكالية" لغويا ومفهوميا، وموضعيا لهذا السبب "ضاع الناس" ولم تدر أى الاتجاهات تسلك.. أنه "التطرف" بجميع أشكاله. و"الدوغمائية" بأجلى صورها، و"الأصولية الشمولية" على اختلاف مناشئها، دينية ووضعية، عقيدية وفلسفية، إيمانية وإلحادية -أنه "التطرف" أو قل هو "الإفراط- العقيدى- المعرفى" أو قل هو التفريط فكلاهما يعد تطرفا وانحرافا عن "الوسط المعتدل والعقلانى" ساق بنا

---

(1). عبد السلام بنعبد العالى:الميتافيزيقا، العلم والإيدولوجيا، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، دار الطليعة، بيروت، الرباط، ١٩٨١، ص٦- ١٣ و١٣٦- ١٥٨ و١٥٩- ١٧٢.

سوقا إلى حيث يريد الخصوم، واعنى "دائرة الإرهاب"! بسبب "تطرف البعض" ومغالاته ووصايته على الإسلام والمسلمين، بعد أن تعرضت ثقافة الإيمان، أو قل "تعادلية الحضارة" بصورتها "المثلثة" انتكاسة وتشويه وسوء فهم، قاد لها، النزوع المادى، والغرور اللا إنسانى والثقة المطلقة بالحلول "غير الإيمانية" لمشكلات الإنسان "القلبية" والاعتبارية. لقد جرى الاهتمام "بالإنسان الجسد" وازدهرت بفضل ذلك العلوم السابقة والجديدة "المبهرة" حتى زاحمت "الميتافيزيقا" مكانتها ووقفت إلى جانبها (١). مثلما اختل "الإنسان -عقلا" بسبب اختلال المعايير المعرفية أو تهشمها، حتى وصلنا عصر "الفوضى" (٢). أو ما عرف بصدمة المستقبل، التى كتب عنها توفلر وهايدى الكثير! أما القلب، موطن الأمن والطمأنينة، وسر الإيمان ومحور الهاجس الميتافيزيقى "الرحمانى" فغابت ملامحه عن "لوحة الثقافة والمعرفة" مع أن شعار العصر يقول "المعرفة قوة" مثلما سبق وقال سقراط "المعرفة فضيلة" ولعل سبب هذا التراجع فى ثقافة الإيمان يعود إلى ضغوط "الحاجة" من جانب، و"غربة العقيدة" من جانب آخر فتعطلت بسبب ذلك، أجوبة العقل على دهشة الإنسان! دلالة على خيبة الأمل بالأجوبة الفلسفية التقليدية مثلما تعطلت، طمأنينة القلب واضطرب الفؤاد، وغادر المن والأمان بواطن الناس وجنانهم! وخفت صوت الضمير صوت "الرحمن" فى دواخل بنى الإنسان! وتشوه الإيمان وسىء إليه، وإلى أهله! ولاسيما ذاك الذى يشد "الذات مع ملكوتها الكونى" بسبب النزعات السيّانية القائمة على تسييس الدين وتحويله إلى مطية للسياسة وللغايات الدنيوية، والحاجات الجسدية. وأصبحت "الغاية تبرر الوسيلة" (٣). وطغى منطق "المصلحة والمنفعة وفلسفة النجاح، والدهاء!" على ذرائع الناس فوهنت حبال القيم، والأخلاف، وكوابح النفس المطمئنة وغابت عن "القرارات" بجميع الأسماء والمواقع!واصبح معيار التقدم "نفعيا، ماديا، حسيا" يسخر من كل نزوع إيمانى أو

---

(1).ألفين توفلر:حضارة الموجة الثالثة، ت:عصام الشيخ قاسم، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ط١، مصراته، ١٩٩٠، ص٣٣٤- ٣٣٦.

(2).ألفين توفلر:تحوّل السلطة، ت:فتحى بن شتوان ونبيل عثمان، الدار الجماهيرية، ط١، مصراته، ١٩٩٢، ص٢٢٦- ٣٣٢.

(3).ميكيافيللى:الأمير ص١٥٠.

أخلاقى، ويصف أصحابه "بالمثالية =بالمعنى السلبى، الخيالى الطوباوى".. وهو ما انتهى إلى "وضعية""علمية، اجتماعية" أعلنت على رؤوس الأشهاد، إفلاس كل من "الدين=الميتافيزيقا" و"الفلسفة=العقلانية" فى حل مشكلات الإنسان! مثلما كشف عطب "القلب" و"ذهول العقل". وغياب الرقيب الداخلى أمام بهرجات العلوم وكشوفها المبهرة وأدواتها الكبرى التى عدت -كما قلنا- "الميتافيزيقا والإيمان"="حديث خرافة"(١). وقضايا مبددة للجهد والوقت والمال والمعرفة.

ومنذ ماركس -وبقية الماديين- لم يعد الدين "سوى أفيون الشعوب" كما جاء فى البيان الشيوعى وغيره من الأدبيات الماركسية- بعد لأن اختلط- الدين كجوهر تقدمى- فى يوم من الأيام- مع السلوك المنحرف لبعض رجال الدين المتحالفين مع الإقطاع أو البرجوازية لاحقا لينتقل الحكم عليه من فساد "الكهنوت" إلى فساد "اللاهوت" وعموم الأديان ولاسيما موضوع "الميتافيزيقا" بسبب الاشتراك فى العلة، "علة استغلال البؤساء والمسحوقين"(٢).

هكذا دخلنا القرن العشرين حيث وجدت الفلسفة "الوضعية" أمام وضع لا يعترف إلا "بقضايا العلم التجريبى" موضوعا للمعرفة الحقة "تحليلية ومنطقية" وما عداه "مثالية وعقلانية، ذاتية وظاهرية" عفى عليها الزمن!

أما قضايا العقل و"الميتافيزيقا" التى هى القشرة السامية من تلك المعرفة لأنها مرهونة بقضايا "القلب" والفؤاد فلقد تراجعت هى الأخرى إلى زوايا قصية! وعد ذلك من الأعمال المجيدة للإنسان "العلمى" -العلمانى بالمفهوم السلبى- ولم يعد للناس حاجة بقضايا "الروح والأخلاق والقيم والمحرمات" -إلا ما ندر- والسبب أن الحكم المطلق بات للحقائق العلمية.. التى هى من أداوت الإنسان "الجسد". ليس إلا! لقد غلب "الجزء"= قضايا "الكل"! وعاش الإنسان من جديد ورطة "غياب الحقيقة" التى قد تقود إلى نقائضها! ورفض الدين سوف يقود بالضرورة إلى "شدة التمسك به" أو التطرف فى التعبير عنه! هذا قانون "عمرانى" لا

---

(1).زكى نجيب محمود:خرافة الميتافيزيقا، الكتاب الذى أصبح فى الطبعة الثانية تحت اسم:موقف من الميتافيزيقا، ط٢، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ١٩٨٣، ص٣٥، وما تلاها.

(2). كارل ماركس:بؤس الفلسفة، تقديم فردريك انجلز، ت:اندريه يازجى، دار اليقظة العربية، بيروت، دمشق، ١٩٦٧، خص١١٦- ٢٢٩.

يمكن التغاضى عنه فالإنسان "حريص" على ما مُنِعَ! وأن المادة مهما ازدهرت تبقى جدرانا صماء تخنق أنفاس الإنسان إذا لم نفتح لها وفيها نوافذ "العقل" و"القلب" والفؤاد! والأخلاق! ولاسيما نحن نعيش "عربا ومسلمين وجنوبيين وشرقيين وبعض الشماليين وبعض الغربيين" مظاهر تراجع مفهوم "العدل والحق والخير والجمال والصدق" أما جبروت المصالح "النفعية" والقوانين الشمولية والإرادات الشريرة، نحن لا ننكر أهمية العلم وكشوفه فى الحياة الإنسانية ولكن الخطر نشأ من نمو هذا "الحقل" على حساب الحقول المعرفية العقلية" و"الروحية" للإنسان فحصل ما حصل من اختلال فى سيرورة الحضارة ومفاهيمها الجديدة بمعنى غياب "مرتكز الاعتدال" الذى سبق وأقامت عليه حضارة الإنسان بالأمس دعائمها الكبرى، فكانت العلوم والفلسفات والأديان، وكان التقدم وكان الحوار وكان التفاهم بفضل حضور "الحكمة والعلم والإيمان" أما "تهافت الإيمان وما يتصل بطمأنينة القلب" فيعنى أن ضلعا من مثلث الحضارة قد تضعضع! "الثقافة الإيمانية" وشوش معه على "ضلع العقلانية" التى راحت تفتش لها عن قنوات للحوار لكى تراجع نفسها وتعيد ترتيب حقائقها حتى تحول دون انهيار الحضارة الإنسانية برمتها. فإذا أردنا تطمين حاجات الإنسان الجسد والعقل والقلب علينا أن نعود إلى مكونات الحضارة وتعادلها "العلم والفلسفة والدين".. ارتقاء مثلث الوجود الذى يتعلق "باللّه والطبيعة والإنسان"..إلخ. أما المغالاة فى إسقاط المعرفة الإيمانية، والعقلية تحت دعاوى التقدم العلمى الهائل، فلم يجد أمامه غير حقبة من الإقصاء والإلغاء، والتخطى، وها نحن نسمع عن "ما بعد الشيوعية، وما بعد البرجماتية، وما بعد الوضعية المنطقية، وما بعد الليبرالية، وما بعد الصهيونية! روبما ما بعد القومية والوطنية" بعد أن أنهار فى العقد الأخير من القرن العشرين المعسكر العملاق "المعسكر الاشتراكى مع الاتحاد السوفيتى، ومعه انهار جدار برلين، والكومكون وحلف ارشو.. والثقافة المادية!" ولم يعد هناك وجود للخطر الأحمر "الشيوعى" الذى يهدد "الليبرالية الشمالية"-السوبر إمبريالية- بل عدّ اختفائه من مسرح الحياة شهادة على نجاح "الليبرالية" (١) -الأمريكية- ونهاية التاريخ بالمفهوم التوراتى (١). المتحالف مع المفهوم "الما

---

(1).فرنسيس فوكوياما:نهاية التاريخ وخاتم البشر، ت:حسين أحمد أمين، مؤسسة الأهرام للترجمة، القاهرة، ١٩٩٣، ص٦٢- ٢٤٧.

بعد الإمبريالى"، والتى انتقلت بواقع الحال، وبالثقافة، والفكر -من فرط هوسها- إلى نوع من- الدين الجديد- "الكيوسية- الفوضوية"[2] . الجديدة، التى هشمت جميع المعايير والمقاييس المألوفة فى عالم "المعرفة فى الفن والأدب والاقتصاد والسياسة والإعلام والثقافة"[3] . بسبب الزهو "بمنطق القوة العسكرية"[4]. لتعيد ترتيب أسئلة الفلسفة . أى تعيد ترتيب خارطة العالم الثقافية كما ترغب وكما تخطط وكما تهدف! والرغبات والخطط والغايات كثيرة وخفية، وخطيرة غير المعلن فيها ومنها إعلاميًا. هكذا يبدو لنا المشهد من السطح! بعد أن ساد منطق يقول:"هناك جماعات تؤمن بتحقق النبوة "نهاية التاريخ" تقوم على "صدام الحضارات" تدعو لها وتتبناها، جماعات غربية "مسيحية/توراتية" تروم التقدم بالبشرية إلى آفاق "رحبة/ ديمقراطية/ متحررة" لكن ثمة أقوام همجية/ جنوبية تعيش وطأة الهوس الدينى "المتطرف" و"الثقافة الإرهابية" تروج للقتل والذبح وتدمير جميع ما له صلة بالغربيين عامة وبالأمريكيين خاصة والإسرائيليين أخص! يتطلب الموقف توحدًا وعملا مشتركا للخلاص من شرورهم! إنها الحرب الكونية على الإرهاب ولاسيما بعد "١١/ ٢٠٠١/٩". وبدلا من الإجابة "العلمية" و"العقلانية" و"الإيمانية" الصحيحة على أسباب هذه الظواهر "المصنعة فى المخابئ السرية" جرى تنفيذ خطط "إرهابية كبرى" بهدف إقصاء أمم وشعوب وأديان عن أدوارها الإنسانية وجرى حصرا إقصاء الإسلام والمسلمين من مسيرة الحضارة الإنسانية تحت ذريعة أن بعض المسلمين المتطرفين يعملون على ترويج الإرهاب! مع أن الحلول الناجحة تتمثل فى الذهاب إلى الأسباب والعلل من حيث تحديد "المشكل

---

(1).عبد الوهاب الكيالى:نهاية التاريخ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٩، ص٤٣- ٧١.

(2). توفلر "ألفين وهايدى":الحرب والحرب المضادة، تعريب صلاح عبد الله، الدار الجماهيرية، سرت، ١٩٩٥، ص٣٦٩- ٣٧٠.

(3). كريستوفر نوريس:نظرية لا نقدية، ما بعد الحداثة، المثقفون العرب وحرب الخليج، ت:عايد إسماعيل، ط١، دار الكنوز الأدبية، بيروت، ١٩٩٩. ص٨٦- ٢٧٣.

(4). بيار بوردو:أسباب عملية، إعادة نظر الفلسفة، تعريب أنور مغيث، الدار الجماهيرية، ط١، سرت، ١٩٩٥، ص١٨- ٢٧٠.

الموضوعى للخل الجارى تسويقه على كرتنا الأرضية من جانب، وتنمية ثقافة المحبة والتعاون والمسؤولية المشتركة عن مصير الأرض من جانب آخر. وتنمية الرقيب الداخلى "الضمير" لدى الناس والعودة إلى خشية الله داخل صدور البشر، لكى يعتدلوا ويعدلوا فى سلوكهم، قبل أقوالهم وفى حكمهم، قبل قرارهم، على قاعدة "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته" والغريب فى الأمر، أنه بدلا من وضع الأصبع على الجرح، جرى التغطية على الأسباب الحقيقية لتلك الاختلالات والصدامات وتشويه الحقائق وبث ذلك النوع من الثقافات العنصرية والطائفية والمذهبية والاستعلائية عبر جميع الوسائل الإعلامية المتاحة، لتسهم فى تأزيم المواقف والعلاقات ولتنتهى إلى سوء الظن وعدم الوثوق. فتغيّر العالم من"شرق/غرب" إلى "شمال/جنوب" ثم جاء التقسيم الأخطر واعنى به "مدنيون حضاريون عقلانيون، مقابل همج إرهابيون غير عقلانيون" هكذا انشطر العالم فى السنوات الأخيرة بهدف تأجيج الصراع والحروب! والغريب أن "الإرهاب/الدينى/الإسلامى" هو عنوان/ القاعدة، وابن لادن، والزرقاوى والظواهرى! وما إلى ذلك من أسماء. هم صنعوها! وسوّقوها! وروجوا لها! وها هم اليوم يوظفونها لبلوغ الغايات القصوى من "الخطاب الإرهابى" والحرب الكونية ضده فى صورة من "سوء الظن، وسوء النوايا" بالعرب والمسلمين. إنها الحرب العالمية الثالثة إذا غير محددة الزمان والمكان والأعداء والعنوان! هذا هو واقع الثقافة/الإعلامية/ الإعلانية، السائدة اليوم فى ظل العولمة وثورة الإنفوميديا والمعلوماتية وعصر السيميائية أو ما يسمى بالعصر الرقمى! الذى أصبح يدور حول صنم أسمه "العولمة" أو قل اقتصاد السوق وعملت الدولار! ولغته "الإنجليزية" ووسيلته الحاسوب! بيننا وبينه -نحن أبناء العالم الثالث/ الجنوبى -الإسلامى العربى- بون شاسع! هو البون الرقمى/ التقنى/ المعرفى -الذى يفصل عالمنا عن العالم السوبر -إمبريالى! الذى لا يحمل شعوبه مسؤولية الخلل فى العدالة الذى تعانى منه الإنسانية حين تحكمه معادلة مضللة تقول:"١٠+ ٩٠/ ٩٠+ ١٠=١٠٠، أو١ أو صفر "لا شىء" فتصدق الأولى على "العالم الأول=المتقدم" وتصدق الثانية على "العالم الثانى" وتصدق الثالثة علينا وعلى عموم العالم الثالث! فما السبيل إلى علاج هذا الخلل؟!

رابعا:ثقافة الإيمان ـوحوار الثقافات الخطاب الإيمانى المستقبلى!

أن حل مشكلات هذا العالم لا يتحقق إلا إذا أعدنا ترتيبه على القواعد الأتية:

١- عالم إيمان يقابله عالم غير مؤمن! تقابلا "تكامليا" وليس صداميا أى لأغراض التوصيف العقيدي، والتنوع الإيمانى بجميع مستوياته حتى تلك التى تؤمن "باللا إيمان الدينى المألوف" مقابل الإيمان الذى يمليه "ما فوق العقل".

٢- عالم عقلانية وحكمة يقابله عالم اللا عقلانية والأخيرة بمعنى النزعات المتطرفة والاستعلائية والعنصرية والعرقية، التى تدعى أنها أنقى دما أو عرقا أو روحا أو مكانة فى هذه الأرض! ومثل هذا النوع من "الحوار" قد يأخذ شكلا ساخنًا، مفروضا من الطرف غير العقلانى لكنه أمر واقع لا يمكن نكرانه!

٣- عالم حوار وتعاون ومحبة وألفة، فى مقابل، عالم صدام، وإعاقة وعدوان وحرب! سلوك العالم الأولى، قد يفجر فى دعاة العالم المقابل له، نوعا من الوعى "الصقور والمتطرفين" يشكل خندق الإنسانية الأول الذى يضم العقلاء والمؤمنين، والإنسانيين، والفطريين، والبيئويين! فى مواجهة الأقلية المستأسدة "المتفوقة" الذين يمثلون "أخلاق السادة" بلغة نيتشة مقابل "أخلاق العبيد=الكثرة"!

٤- عالم الكثرة الى لا تزيد فى هذا العالم غير العيش والتكاثر واستثمار الخيرات، وتبادل المنافع، والتعاون.. بعيدا عن مظاهر القهر والاستغلال والاستبداد! ما دامت الأرض "قرية صغيرة" حسب المنطق المعلوماتى. فالأفضل أن نوظف ثمار العلوم والتقنية والعولمة والإعلام والتقدم الشامل لصالح الإنسانية لإصلاح الخلل فى معادلة العالم اليوم وتصبح أكثر إنسانية! فمن غير المعقول أن يستأثر ١٠٪ من سكان القرية بنسبة ٩٠٪ من خيراتها تاركة ١٠٪ من هذه الخيرات لـ٩٠٪ من سكانها! وإصلاح الخلل يمتد إلى العلوم والاقتصاد والجامعات والمعرفة والأديان والعقائد والإعلام!

أننا نريد حوار عقلاء[1]. منصفين أصحاب ضمائر مؤمنين بوجود عدالة تحقق قانون "العدالة -والقصاص" بغض النظر عن شكلها ومكانها وزمانها، المهم! أم "حق الإنسان" فى الحياة الحرة الكريمة، مضمون ومصان، ليكون الجميع سدا فى وجه عوامل الاستغلال والاستلاب والاقصاء. من هنا تأتى أهمية "ثقافة الإيمان" و"حوار الثقافات". لكى نصل بها إلى كلمة سواء، من أجل خير الإنسان وخير الطبيعة ومن أجل حسن العلاقة مع ملكوت السماء، ولكى نعيد للإنسان "الجسد والعقل والقلب" توازنه فى هذا العالم المختل! بن حاجة إلى عالم يسوده الحوار والتفاهم المبرأ من الأحكام المسبقة، والنوايا السيئة، يشمل جميع المؤمنين والعقلاء والمنصفين وذوى الضمائر الحية طريقا لحل مشكلات الإنسانية المعاصرة، وإعادة التوازن إلى الحضارة التى اختلت بسبب نمو الجانب المادى على حساب الجانب المعنوى والثقافى والقلبى"الإيمانى"!

أن بالبشرية حاجة اليوم إلى فتح قنوات للحوار بين أرباب القلم وأمراء الكلمة الطيبة. وثوابت المجتمعات ونوابتها، يقوم على قاعدة من الاحترام المتبادل والبناء والتقدم والانطلاق من عشر قواعد لا يختلف عليها العقلاء هى:

أولا: قاعدة رحمانية تقول:"كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته" والكلمة الطيبة صدقة!

ثانيًا:قاعدة إجتماعية تقول:"يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم".

ثالثا: قاعدة أخلاقية تقول:"بالأعمال الجليلة يخلد الإنسان ويحتفظ له باسم بين الأسماء الخالدة" فى ذاكرة الأمم والشعوب أنه الخلود المعنوى.

رابعًا: قاعدة جمالية:"الأعمال ذات النفع الشمولى للإنسانية أعمالا جميلة".

خامسًا: قاعدة ديمقراطية تقول:"الناس سواسية كأسنان المشط".

---

(1). كوفى عنان:حوار على هامش مؤتمر دافوس، قانون الغاب يهدد النظام العالمى، الترجمة العربية منشورة فى جريدة الزمان الدولية، بغداد فى ٢٤/ ١/ ٢٠٠٤، ص٢.

سادسًا: قاعدة إنسانية تقول:"لا فضل لابن البيضاء على ابن السوداء إلا بالحق". و"خير الناس من نفع الناس".

سابعًا: قاعدة تحررية تقول:"متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا".

ثامنًا: قاعدة وطنية تقول:"الدين لله والوطن للجميع".

تاسعًا: وقاعدة جزائية تقول:"الجميع أبرياء إلا من ثبت عليه جرم أو جناية" أ، "المتهم برئ حتى إدانته".

عاشرًا: وقاعدة حقوقية تقول:"كل شيء مباح "مسموح به" إلا ما ورد فيه نهى أو تحريم". وبهذا تستوى الحياة الإنسانية على صرح من العقلانية النقدية. تاركين للأفراد والأمم، حق التفوق والإبداع، والابتكار فى قضايا "الجسد=العلوم" وقضايا "العلوم". أما القلب فهو باب مفتوح على خالقه وعالمه "الميتافيزيقى" يلطف بواسطته الأجواء الخالقة التى يعيشها الجسد ويعانى منها العقل! فيتحرر بفضلها الإنسان من عوالم -الحاجة والدهشة- ويسخّر قدراته العلمية والمادية من أجل حياة أفضل، قرية يختفى منه الظلم والقهر والاستبداد، ويسخّر كل شيء لصالح الإنسان والإنسانية، ليكون بحق خليفة الله فى أرضه وسيد نفسه، والقيّم على الطبيعة! والناس سواء فى مهماتهم، إذا ما راعوا "الذات" و"الجماعة" و"الطبيعة" حق رعايتها، تاركين ما يعرفون "من الوحى" أو ما يجهلونه، عن ملكوت الوجود إلى "الله" وإلى "المستقبل".. مادامت الحياة دورة لا تتوقف بالموت!

تلك هى خلاصة المنظور الإيمانى -نحو المستقبل الإنسانى من زاوية "العقلانية النقدية" التى تعترف بالقيمة الإنسانية المشتركة والتفاضل بالقيمة الإبداعية والتقوى الروحية! فالجميع سادة أنفسهم وأوطانهم وأممهم وأرضهم والإنسانية جمعاء! لكنهم عبيد الواحد الأحد! ومن حق الإنسان أن يقف عند حدود الأرض أو الطبيعة أو يتخطاها إلى ما ورائها، أو يقف إلى جانبها، لا يهم المهم أن نفسح مجالا لعلوم جديدة ومعارف جديدة وحقائق جديدة، ولا نأخذ الفرد بجريرة غيره، ولا الشعب بجريرة إدارته المستبدة، ولا الدين بجريرة "أفراد مهووسين" أو متطرفين! ولكن علينا أن نضع فى حسابنا، أن عالما خاليا من الظلم والاستبداد والعدوان، هو الملاذ الآمن للإنسان! ومثل هذا العالم سيوفر فرصة "رحمانية" للإبداع والتنافس الشريف والعلاقة الحسنة والثقة المتبادلة. ولا يحكم على الناس أو الأمم

"بالنوايا" فذلك أمر -مرعب- سبق وتحدث عنه جورج أورويل فى روايته "١٩٨٤" مما تقشعر له الأبدان!

علينا أن نرسم مثلثا عقلانيا جديدا للمعرفة المستقبلية يخرج من ثنائية "الطبيعى" و"ما بعد الطبيعة" إلى "إنسان، وطبيعة، وميتافيزيقا" يحقق حاجات الجسد ويجيب على أسئلة العقل ويطمئن الفؤاد. هكذا نريد ثقافة وهكذا نريده حوارا بين الثقافات، وهكذا تتوازن العلاقة فى "مكونات الوجود" بين الميتافيزيقا وما بعدها وما بجانبها فلا عجب بعد ذلك من الحديث عن "عالم الخيال" الذى عدّه رجال الوضعية المنطقية فى القرن العشرين نوع من "الميتافزيقا" يصعب التعويل عليه أو التصديق به أما نحن اليوم، وغدًا فلقد وجدنا أنفسنا وسنجدها، إزاء علوم تفوق العقل والتصور ويصعب علينا تصديقها وما أدرانا ماذا سيجد الأحياء بعد قرن من الزمان؟

ساعتها سيحكمون على معارفنا العلمية بالسطحية والسذاجة واللا دقة. هذه هى "نسبية المعرفة" وتعدد طرقها، واختلاف مشاربها. فالاختلاف المعرفى "رحمة" والتنوع "حقيقة". كما هى ألوان الطيف الشمسى! هكذا يكون الحوار معقولا، ومقبولا، وبهذه الكيفية تغرس ثقافة الإيمان لتكون انعكاساتها فى مرآة الآخرين، مرهونة بشكل تلك المرآة! التى لا تلغى وجود الحقيقة الإيمانية، مهما بدت عليها الصورة فى المرآة! هكذا نتعايش مع "العصر المرآوى" الآتى والقادم!

خلاصة القول

كشفت لنا -القراءة العقلانية النقدية- لقضايا ثقافة الإيمان وحوار الثقافات عن النتائج الآتية:

١. أن الميتافيزيقا مبحث معرفى يختص بما وراء الطبيعة، ومسائل الوجود والأسباب البعيدة، وعالم الروح، والحياة الثانية، والثواب والعقاب، والجنة والنار..إلخ. اختلفت حولها أقوال الحكماء، وآراء العلماء، والمذاهب العقلية "الفلسفية" واتفقت عليها "النصوص/ الكتب/ النقل". وعدّ هذا الميدان صرحا للقلب والفؤاد والجنان! وسقفا لمباحث العقل وما فوقه! يصعب اختراقه.

٢. ما وراء الميتافيزيقا مفهوم يختص بالطبيعة والعوم المستجدة، إذا ما أعدنا قراءة المنهجية الأرسطية بشكل معكوس! بعد أن تعذر على تلامذته وشراحه إيجاد عنوان للمحاضرات التى تدور حول السماء والعالم المحرك الذى يحرك العالم ولا يتحرك! فيصبح "ما بعد الطبيعة" عند ذلك، هو أحد أمرين إما "علوم الطبيعة المألوفة" أو العلوم المجاورة لكل من الطبيعة وما بعدها! على الرغم من انطلاقها من الطبيعة والوجود المرئى والمحسوس، وقضايا المادة، والإنسان "الجسد"، المحكوم بضرورات الحاجة، ولما كانت الحاجة أم الاختراع، والعقل وسيلة الإنسان فى الكشف والابتكار، والاستنباط فمن المرجح جدا الوصول بهذه العلوم إلى مديات جديدة راقية من الاكتشاف والابتكار والإبداع.. وصولا إلى عصر الإنسان الرقمى، وما بعده! وهو يرتقى إلى مستوى فائق من العلوم بمثابة "المنطقة الوسط بين الطبيعة وما بعدها" التى تجمع إلى جانب المنجزات "العلمية" و"العقلية" و"القلبية" مستوى جديد يتشكل من الوعى العقلانى وما فوقه! انطلاقا من موضعاته "العلمية- التقنية- الفوضوية- الرقمية". أما زمان "الما بعد" النازل، فهو فى الألفية الثالثة يتمثل بخليط الكعكة النفسى -بلغة توفلر- الذى يراد به ذلك المخلوق صاحب الثقافة "فوق الجنسية" التى يتبادل فيها المرأة والرجل الأدوار! من غير أن تصلح لثقافة الإنسان "الجنوبى"، بعد أن عدّه البعض حقل تجارب للعلوم الجديدة تخلط "العلم مع الخيال" و"المادة مع الروح" و"الذكر إلى الآنثى" و"الفرد إلى السلطة" بل تجمع الواقع وما فوقه جمعها للوجود واللا وجود إننا إزاء "وجود فوقى" بمثابة البرزخ بين الأرض والسماء! أنه ذهاب إلى شبكة جديدة من المعارف يتعايش فيها.

أ. المألوف مع ما فوق المألوف وما بعده.

ب. التقليدي مع غير التقليدي لمجرد أن الأخير مبهر فحسب! وليس أخلاقى! أو جميل!.

ت. الفردى مع الكونى، فى إطار من وحدة الوجود "الأنطولوجيا- الذاتية" التى تشد الذات الوجودية، بدائرة الوجود المطلق! لحظة يشاء ذلك الإنسان! فيدرك قوته وصبره، وقدرته على تجاوز الصعاب.

ث. العقلى، مع ما هو فوق عقلى، أو ما يعرف "بعلم الخيال" -علميًا- ومعين الجهات الست منطقيا. "يمين/ يسار" و"خلف/ أمام" و"أعلى/ أسفل".

هكذا أرادت الدراسات المستقبلية أن تفتح أمام العقل والتقنية آفاقا غير معهودة، هى "الرؤيا" أقرب منها "للرؤية الحسية"! أنها منطقة "حياد" بين العلوم والعرفان "التصوف"، أو قل بين "الواقع والحقيقة"، أو بين "الأخلاق والفن" أو بين "الضرورة والحرية" أخطر ما فيها، أن تنتهى بالإنسان إلى "كيوسية= فوضوية، على الأصعدة كافة" بعد أن دخلنا حقبة الما بعد "شيوعية، براغماتية، وضعية منطقية، ليبرالية، قومية، وطنية..، وصولا إلى الصهيونية".

أنه العصر الرقمى الذى سيكون فيه للروح والإيمان والقلب "الدين" عودة، تنطوى على تناقض، بين التطرف والإصلاح، والضياع، بين النزعات المادية والكلبية، والنكوص إلى الحيوانية الأولى ومنطق القوة وشريعة الغاب، فنحن إزاء "أفراد بأزياء رجال الفضاء" كما يقول جارودى، كناية عن "امتلاكهم مفاتيح التقنية المعاصرة" ولكن تتحكم فيهم نوازع "الحيوانية الأولى" فى التسلط والهيمنة والاستحواذ. وللخروج من هذا المأزق، لابد من جعل "الإيمان هو قطب الرحى لضمان التوازن النفسى والإجتماعى، والروحى" الذى من غيره سيفلت العصر منا ونفلت منه، ولكى يكون للمستقبل ذلك الأفق الإيمانى! لابد لخ من لولب حركى يعيد التوازن للواقع المختل، الذى تعصف فيه معادلة "١٠+ ٩٠= ٩٠+١٠" التى تبدو صحيحة رياضيا، لكنها ليست كذلك "أخلاقيا وروحيا" بمعنى أن عصر التوازن هذا لن نبلغه مستقبلا إلا إذا جعلنا المحرومين عامل فعل فى حركة التاريخ، وليس نفايات ترمى خارج سياق التاريخ أو سيرورته، سيتعفن التاريخ من غير "المحرومين والمؤمنين الأخيار" فهم-ملح التاريخ مثلما هو ملح الأرض- فالفقراء، عيال الله وملح الأرض والأكثرية التى جعلت

الأرض مسرحا لرخائهم وخيرات لهم ولسعادتهم! أن اختلال المعادلة اليوم سيقود إلى السقوط، الحضارى، فالمطلوب هو إعادة التوازن لها، أى لمتطلبات الحاجة والدهشة والرهبة، لكى نتجاوز خلاف ماركس مع برودون فى "بؤس الفلسفة وفلسفة البؤس" فى القرن التاسع عشر، وتوافق حديث السيد موسى الصدر عن "حركة المحرومين" مع ما ذهب له يوسف نور عوض عن "الفقر المصنع" فى القرن العشرين! كناية عن المشروع الإمبريالى، القائم على سرقة خيرات الشعوب واستعبادها! وجمعيهُ يدخل دائرة "الحرمان والمحرومين" ويتقاطع مع فكرة "الاستخلاف".. أما نحن فى القرن الحادى والعشرين، وفى ظل الحقبة السوبر إمبريالية والعصر الكيوسى/ العولمى/ الإدهوقراطى! فلقد تحوّل فيه الاقتصاد إلى دين جديد! صنمه الأكبر "اقتصاد السوق" ورمزه الدولار! ولغته الإنجليزية ووسيلته الحاسوب! فهل بإمكاننا أن نغيّر هذه الولاءات وتلك الطقوس الشيطانية! لتعود ولاء للرحمن، ومن أجل الإنسان!! هذا هو ملخص هذه القراءة الإيمانية للمستقبل الإنسانى! جاءت فى هدى مواقف متوازنة من "العلم والفلسفة والدين" بعدّها قواعد الحضارة الإنسانية، التى ما قامت إلا استجابة لحاجات الإنسان ودهشته ورهبته، لكى تكون حياتنا على "الأرض= القرية الصغيرة" ذات طعم، ومذاق جمالى وأخلاقى متوازن ومحمود، أو لتتقلص مساحة الفقر والظلم وسرقة خيرات الشعوب والحقوق! آن بالإنسانية شماليها وجنوبيها حاجة إلى روح الحوار والمحبة وتبادل المنافع والخبرات والتجارب! فهل سيسمع هذا النداء! سامع؟